جامعة القاهرة
كلية دار العلوم
قسم الفلسفة الإسلامية

علم الكلام الإباضي بشمال إفريقيا فى القرن السادس الهجري

بإشراف

الأستاذ الدكتور / محمد السيد الجليند

أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

رسالة مقدمة من

الباحث

محمد السيد إبراهيم نصار

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م

(شـــكـــر وتـــقـــديـــر)

أتوجه بوافر الشكر والعرفان، وأسمى آيات التقدير والامتنان لمشرفي على الرسالة العالم الجليل:

الأستاذ الدكتور . محمد السيد الجليند

أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم– جامعة القاهرة .

فقد كان له – بعد الله جلَّ وعلا – الفضل في التوجيه والتقويم العلمي الأمين، دون أن يبخل عليَّ بوقت أمام كثرة شواغله وعظم مسئولياته، من أجل أن يخرج هذا البحث إلى النور.

كما أتقدم بوافر الشكر والتقدير للعالمين الجليلين :

الأستاذ الدكتور. مصطفي حلمي – أستاذ الفلسفة الإسلامية بكلية دار العلوم، جامعة القاهرة

والأستاذ الدكتور عزمي زكريا – أستاذ ورئيس قسم الفلسفة، جامعة القاهرة– فرع الخرطوم

.

وذلك لتفضلهما بقبول المشاركة في لجنة المناقشة والحكم على هذه الرسالة، كما أشكرهما على ما خصصاه من وقتهما الثمين في القراءة من أجل التقييم وإبداء الرأي .

أدعو الله عز وجل لهم جميعا بتمام الصحة والعافية، وأن يزيدهم علما وقدرة على العطاء الموصول، وأن يجزيهم عن طلاب العلم والدين خير الجزاء، إنه ولى ذلك وهو نعم المولى ونعم النصير .

وبالله التوفيق، وهو من وراء القصد .

الباحث

مهاد وتأسيس

(المقدمة)

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على خير الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وبعد:

اهتم الإباضيةُ كغيرهم بعلم الكلام وألفُوا فيه على امتداد فتراتهم المختلفة، ولأنَّ تطورَ المذاهب عادة لا يكون عبرَ قفَزاتٍ نوعيةٍ فجائيةٍ، بل في ظلِّ أطوارٍ مختلفةٍ، فإن القرن القرن السادس الهجري يعد قرن علم الكلام الإباضي؛ ففيه أدرك التراث العقدي والكلامي مستوى النضج، وتصدى للقضايا الكلامية فأنتج نمطا من التأليف في المناظرات والجدل يرى عالي الشأن وهام الدور، سواء أكان الأمر متعلقا بالخصوم من رجال الأديان الأخرى والرد على كل ما جد في البيئة الإسلامية من انحراف وإلحاد، كما جد في إبراز مميزات العقيدة الإباضية بين الفرق الإسلامية الأخرى وبصفة خاصة المدرسة الأشعرية التي مدت نفوذها على كامل بلاد المغرب بعد انتهاء النفس الشيعي.

لقد تميز هذا القرن بمجموعة من العلماء الكبار في علم الكلام الإباضي، على وعي تام بأهميته وتعاطي قضاياه، ومدركين – في الوقت ذاته - وعورته وخطورة مسلكه، فأنتجوا نتاجا زاخرا لم يعرف الإباضية له نظير، وظل عمدتهم إلي يومنا هذا فشرحوا، وحشوا، واختصروا[1].

إنه ليمكن القول إن هذا القرن – في التاريخ الكلامي الإباضي وعلى المستوى الإنساني – يمثل مرحلة واتجاها وفكرا:

أما الفكر: فهو علم الكلام الآخذ إلى تحقيق التوحيد فيما يتعلق بصفات الله وكمالاته، ونفي النقائص عنه، وما يليق فى حقه ومالا يليق؛ الساعي إلى الحفاظ على إيمان المسلمين ومعتقداتهم، والذود عنها بردّ الشبهات، ورفع الإشكالات، ودفع الاعتراضات.

وأما الاتجاه: فهو الاتجاه المعرفي والبرهاني/ الأدرية في تناول المسائل والقضايا التوحيدية وعناية التلازم بين المنطق والفلسفة على ندرة فشوهما، والعناية بالتوحيد خاصة والكلام عامة، فلم يكن علم الكلام عندهم من صنف علم الكلام الطبيعى الذى يستند إلى العقل/ الفكر/ النظر وحده دون سواه من الوحي أساسا لتحصيل المعرفة بالقضايا الكلامية، بل كان فى نظرهم لاهوتا موحى به.

---

(١) كان ذلك في المرحلة الثانية والثالثة والرابعة - في إطار الخط البياني من النشأة وحتى المعاصرة – من القرن السابع وحتى القرن الرابع عشر. انظر: مراحل تطور علم الكلام في هذه الدراسة. ومن ذلك: حاشية علي كتاب الموجز لإبراهيم القراري (١٣٣٧هـــ)، وشرح القطب أطفيش (١٣٣٢هـــ)، كما يوجد عددا من الحواشي على كتاب الجهالات لأبي عمار، في العقيدة والكلام : إحداهما لأبي يزيد بن أبي ستة (١١٠٠هـــ) وثانية: لسليمان بن أحمد بن أبي ستة (١٠٨٨هـــ) وثالثة: ليوسف المصعي (١١٨٧هـــ) ورابعة: ليونس بن سعيد التعاريتي (٩٨٨هـــ) بالإضافة إلي تعليق يوسف بن باحمد بن كاسي (١٢٤٢هـــ) علي الدليل والبرهان. وحاشية لأبي ستة علي كتاب أصول الدين لتبغورين، وثانية لعمرو التلاتي، وشرحها القطب أطفيش شرحا وافرًا .... وغير ذلك كثير . وتم الاستفادة من بعض هذه الشروح والحواشي في البحث.

وأما المرحلة: فهي حقبة زمنية من العصر الوسيط (ق٦هـ)، والتي تمثل معلما من معالم سيرورة أدبيات وإسهامات المجتمع الإباضي في عصوره المتقادمة والمتطاولة.

ولهذا كان اختيار الموضوع: (علم الكلام الإباضي فى شمال إفريقيا في القرن السادس الهجري) اختيارًا مصحوبًا بأسبابه ودوافعه المختلفة، ومنها:

١- الدافع الاكتشافي:

إن الأمم العظيمة والشعوب العريقة تولد بعقيدتها وتحيا بذاكرتها، فالذاكرة هي الروح التي تسري في جسد الأمة فيطول بقائها، وهي الدماء التي تتدفق في عروقها فتشتدد عافيتها. وبالذاكرة تتذكر الشعوب أحداث ماضيها وتتفهمها وتتدبر معانيها، وتستخلص الدروس والعبر التي فيها. وبالذاكرة تتذكر الأمم عناصر قوتها وأسباب رفعتها فيما مضي من تاريخها فتبني حاضرها ومستقبلها علي نهجها، وعندما تذبل الذاكرة في أمة من الأمم تذبل، وعندما تموت تموت... وإحياء لتلك الذاكرة التي لا نرضي لها أن تموت، واكتشافا لقسم كبير من نقاشات بين المسلمين في البحوث الكلامية التي اعتنت محاولة – ولا زالت– تصحيح الاعتقاد طلبا للحق أو الإقناع به، كانت وجهة الدراسة هذه شطر الإباضية وإسهامهم في علم الكلام.

يمكن التأكيد علي أن علم الكلام الإباضي قد ظلم ظلما مزدوجا: **فمن جهة أولى:** قد عانى ما عاناه علم الكلام بعامة داخل فضاء الفكر الإسلامي من بعض إهمال ما طال تحقيق نصوصه فحسب، وإنما تعدى ذلك ليمتد إلى أن ينال أيضا من درسها كما ينبغي ومع من ينبغي أن تتدارس معه من أهل الاختصاص النادرين.

ومن جهة ثانية: فإنه حتى داخل فضاء العلوم الإسلامية التي اجتهد الإباضيون في التدوين فيها، ما حظي علم الكلام بالقدر الذي حظيت به باقي هذه العلوم.

ثم إنه – من بين العوامل الذاتية – قد اشتهر عن علم الكلام صعوبته على متعلمه ووعورة مأخذه. فالمتتبع لكتب التراجم والسير التي أفردت للحديث عن مناقب علماء الإباضية وشيوخها وأئمتها بشمال إفريقيا – وبخاصة في القرون الأولى– يجد أنها اهتمت بالدرجة الأولى بالجوانب السياسية والفقهية والسيرية والجغرافية والتاريخية والاجتماعية للإباضية، على أن القضايا العقدية والتوحيدية والكلامية ما كانت غائبة بالتمام والكمال عن ذكرها، وإنما كانت تشير إليها بين الحين والآخر، وإن كان يتم ذلك على نحو متفرق مشتت وفي تضاعيف متون هذه السيرة وثناياها، حتى بدت تتقلص هذه الظاهرة مع مشايخ هذا القرن الأصيل وعلمائه.

وحتى أغلب الكتب والمقالات المعاصرة التي دارت على الشأن الفكري والحياتي الإباضي في شمال

إفريقيا، إنما ركزت على هذه الجوانب سابقة الذكر، وأهملت بالتلقاء المؤلفات الكلامية والعقدية (التوحيدية)، اللهم إلا باستثناء بعض الحالات النادرة[1]. والحال أنّ أغلب المتصدرين لدراسة لهذا الفن عند الإباضية: إما أنهم لم يهتموا بدقائق مسائل الكلام واكتفوا بالإشارة الوصفية إلى قضاياهم التي تدخل في عموم العقيدة– علي اعتبار أنه يوجد ثمة فرق بين علم الكلام والعقيدة – وموقفهم منها، حتى وإن كانت من داخل مصادرهم. وإما أن تكون الدراسة مفتقدة إلى التوثيق من داخل مصادر المدرسة أو الفرقة نفسها، والاكتفاء بما كتبه المخالف من أصحاب المقالات، وهذا لا يجوز على اعتبار – أيضا – أن نقل المخالف في المذهب لا يعتد به. وهذا كله يوضع في الاعتبار تقديرا لحرمة الحقيقة، ورعاية لحدودها عند البحث، وتأكيدا على أن للإباضية كتبا ومصادر في هذا الشأن.

٢- الدافع المعرفي:

يمثل ذاك الدافع لهذا العمل بحثا تطبيقيا في التراث الإسلامي للوقوف على مشاغل الأسلاف واكتشاف ما همّهم، فقض مضاجعهم. وهو مبحث أصيل ما زالت ثقافتنا المعاصرة في حاجة إليه. كل هذا التراث – بما فيه تراث الإباضية – يشدنا إليه شدا، ويدعونا إلى التعرف عليه تعرف المنصف للحق، الهادي إلى صراط وحدة المسلمين، وتغيير ممسوخ الصور المرتسمة في أذهان البشر بالوراثة، إنها الهداية التي تحمل في جوهرها ومآلها تأسيسا لمبدأ التغيير بدلالة متميزة في واقعيتها وغائيتها وإنسانيتها.

والدافع المعرفي هنا – وضمن هذا الإطار– يعني : الاهتمام بالنص المختلف عامة والتراث الإباضي خاصة، والانكباب علي درسه من مصدره، لهو مشروع إعادة اعتبار لقسم مهم من إرثنا الثقافي، من الواجب الإنصات إليه في تحليله للإشكاليات العقدية والفكرية بهدف تبين مقومات وجهة نظره، ومعرفة وسائله المنهجية، وتمحيص أدواته المعرفية، والوقوف على همومه الثقافية، ثم إدراك نمط الاجتماع البشري الذي دعا إليه وخصائص العمران الحضاري الذي اقترحه. وهذا من شأنه أن يسهم في إزاحة الغموض الذي ما زال يلف فترات مهمة من تاريخنا، ويمتد إلى حاضرنا.

٣- الدافع الثقافي:

إن الدافع الثقافي بالمفهوم النقدي المبني على البعد المعرفي – الذي سبق ذكره– هو الدافع الأهم، بل لعله بيت القصيد الذي شدني إلى معاشرة هذه الدراسة. وخاصة أن المدرسة الإباضية طبعت الحياة في شتى أبعادها بمناطق عديدة من بلاد الشمال الإفريقي، ووجود مراكز للإباضية، وهو ما يمثل حضورا مذهبيا

(١) يمكن التأكد من صدق هذا الادعاء بإلقاء نظرة علي الببليوغرافيا التي أفردتها جمعية التراث بغرداية إلي ما كتب عن المجتمع والفكر الإباضيين بشمال إفريقيا حتى عام ١٩٨٩م، ط دار العطف، غرداية، ١٩٨٩م . وبالنظر أيضا إلي : البرادي، رسالة في كتب الإباضية، أنه من ضمن ما يقارب التسعين كتابا من مؤلفات الإباضية التي يشير إليها، لا تتعدي الكتب في الكلام الصرف العشرة .

معيشا، كما في جزيرة جربة[1]، ووادي ميزاب وتاهرت وملشوطة وسدراته ووارجلان[2]، وجبل نفوسة[3]، ويعد هذا عاملا مهما لا يمكن إغفاله لدراسة عمق وانغراس تعاليم وأفكار هذه المدرسة نظرا لتجذرهم في المجتمعات المختلفة. والبحث عن السر وراء بقائهم حتى يومنا هذا بينما انقرض أتباع لفرق أخري، وفحص الاعتقاد السائد بأن الإباضية هم أقرب الفرق إلي أهل السنة[4]، وهذا يسوغ ضرورة بحث صدق وواقعية هذا الافتراض من خلال دراسة أفكارهم ومعتقداتهم، ومدى توافقهم مع أهل السنة، هذا من ناحية. ومن ناحية أخرى: فإنهم كذلك يمثلون حضورا ثقافيا – بالمعني الأنثروبولوجي للمصطلح – على امتداد رقعتهم المعيشية، والسؤال عن عاداتهم وتقاليدهم ومظاهر حياتهم اليومية، أو في الأمثال والسير والحكايات، أو في الموروث الأدبي الشفوي كالأغاني، والإنشاد الديني، أو في أنماط ممارسة الطقوس، وهذا في حد ذاته يشكل مجالا خصبا للبحث في تخصصات العلوم الإنسانية، لا سيما علوم اللسانيات والبلاغة والنقد من جهة، وتاريخ الفكر والأنثروبولوجيا وعلوم الاجتماع من جهة أخرى. ويأتي افتراض مظانه أن دراسة العلاقة بين الإباضية والمذاهب الأخرى – وبخاصة الأشعرية وأهل السنة– يمكن من خلالها أن يكتنه سر الحذر في التعامل بين أصحاب الاتجاهين، ويتبين دوافع الأحكام المسبقة والآراء المتشنجة، وحتى الإدانات المتبادلة في ما خلا من العقود، وتأثير ذلك على الموروث الثقافي المختلف.

وأما عن الدراسات السابقة:

فإن العقود الماضية شهدت على استدراك ما فرط ولو جزئيا، وذلك بإيلاء العناية إلي الجوانب الكلامية في فكر إباضية شمال إفريقيا[5]، لكن بعيدا عن حدود فترة دراستنا وأعلامها ما خلا بحث قصير فى (٢٢) ورقة لعمار الطالبي بعنوان: (الاتجاه الكلامي عند الإباضية بالغرب الإسلامي)، فيه إشارات لبعض علماء هذه الفترة، وقد نشر ضمن كتاب الاتجاهات الكلامية في الغرب الإسلامي، منشورات كلية الآداب

(١) جزيرة تقع في جنوب شرق تونس في خليج قابس، أبو زكريا، السير، ص،١٣٥ علي يحي معمر، الإباضية في تونس، ص ٢٠٢.

(٢) وادي ميزاب وتاهرت وملشوطه وسدراته ووارجلان :هي قري وأماكن واقعة في دولة الجزائر، راجع تفاصيل: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٥/ ٣٧١، علي يحيى معمر، الإباضية في موكب التاريخ، ٤/ ٤٦٦ – ٤٧٨، ابن خلدون، العبر، ١١/ ١٢٠– ١٢٥، الجعبيري، نظام العزابة في جربة، ص٣٦ –٣٧.

(٣) ذكر ياقوت الحموي أنها منطقة جبلية جبل تقع بعد إفريقية ، راجع: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ٢/ ٨٠٠ ، جون ديبوا، جغرافيا جبل نفوسة، دراسة ميدانية، ١/ ٣١– ٣٥، الإباضية في موكب التاريخ، ٢/ ١٨٣، الباروني الأزهار الرياضية، ٢/ ١٣٨ .

(٤) راجع : د. مصطفى الشكعة، إسلام بلا مذاهب، ص ١٣٦ .

(٥) من ذلك: دراسة محمد حسان، الإباضية وعقيدتهم، نال بها الدكتوراه من جامعة الأزهر، ١٩٧٠م. دراسة مسلم بن سالم بن علي الطعيمي، الفكر العقدي عند الإباضية حتي نهاية القرن الثاني الهجري، دكتوراه جامعة الأزهر، ٢٠٠١م. دراسة بابا واعمر خضير بن بكير، بعنوان: إسماعيل الجيطالي وأراؤه الكلامية، جامعة الجزائر، ٢٠٠١م.

والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة: ندوات ومناظرات رقم (١١٨)، بدون إصدار، ص ٩٧- ١١٩. ومقال له أيضا في: (٥) ورقات بعنوان (أبو عمار الكافي والنسق الكلامي)، مجلة الأصالة، العدد (٤١)، محرم ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧، ص ١٧٢- ١٧٥. ولعبد الرحمن الجيلالي مقال في العدد نفسه بعنوان: (أبو يعقوب الوارجلاني، وكتابه الدليل والبرهان).

إشكالية البحث وأهدافه:

تأتي هذه الدراسة لتقدم إجابات تتعلق بإشكاليات في الحقل المعرفي الإباضي على مستويين: المستوى الديني العقدي، والمستوى الديني الحضاري. **فأما المستوى الأول**: فنذكر فيه ما يأتي:

أولًا: ما يتعلق بـ "البدايات التأسيسية الأولى" للمدرسة الإباضية بين الفقه وعلم الكلام في ضوء مسالك الأحداث السياسة التي مرت بها الإباضية، فأنتجت حقلا من المفاهيم والبناء المعرفي للفقه واللاهوت الإباضي. وكذا مشكل الاتصال بين علم الكلام وعلم أصول الفقه بنيويا وتكوينيا، ذلك أن كليهما: علم منهجي ومضموني في آن واحد، وأن كليهما علم ابستمولوجي – يفحص في الاعتقادات، وكلاهما يستند إلى منطق الاحتجاجات.

ثانيًا: تقف هذه الدراسة على نوعية القضايا والمسائل الكلامية التي شغلت أذهان أصحاب الاتجاه الإباضي، وكيف عالجوها من الناحية الفكرية والمنهجية؟ وهل أضافوا رؤية ومنهاجا ومختلفا عن تقاليد الفلاسفة والمتكلمين في هذا الميدان، أم تماهوا مع غيرهم وأنتجوا خطابا تلفيقيا فاقدا للهوية؟

ثم نعاود لنبحث عن المكونات الأساسية للفكر الإباضي الكلاسيكي الذي أنتج نظاما معرفيا له قوانين ومواجهات تحكمه نوعية العلاقة بين العقل والنقل صادقا. ليس الفكر الإسلامي (في مجموعه) سوى كيفيات مختلفة للنظر في النقل، وليست الكيفيات المختلفة سوى العقل وهو يعمل، ما يجعلنا نتسائل: على أي نحو تتحدد العلاقة بين المعقول والمنقول في المنظومة الإباضية؟ وسؤال ثان- ينبع من السؤال المتقدم – وهو: ما صفة العقل وما مقامه في الوجود؟ وعليه؛ ما هي المسائل العقائدية التي جمعت بين الإباضية والمعتزلة ؟ والمسائل العقائدية التي جمعت بين الإباضية والأشاعرة؟

ثالثًا: تقف هذه الدراسة على حقيقة التطور الكلامي الذي قصدناه، هل له حقيقة وشواهد أم أنه مجرد ادعاء؟ وإذا كان حقيقة، فما هي المسوغات العلمية والمنهجية لاعتبار هذا القرن هو أزهى قرون الإباضية؟ وهل كان هناك عوامل سياسية فأخرى اقتصادية فاجتماعية وراء هذا الازدهار؟

رابعًا: عن العلاقة بين الإباضية وغيرهم من الفرق الأخرى، وحقيقة الخلاف بينهم الذي وظف فيه وسائل متعددة من أهمها: الاستدلال الحجاجي، وكذلك البحث في القواسم المشتركة التي تقربهم أحيانا من المعتزلة، وأحيانا أخري من الأشاعرة والماتريدية وأهل السنة، وهل كان لهذا القاسم تأثير صياغة، أم تأثير صناعة؟ وما هو حقيقة الخلاف داخل البيت الإباضي وسببه؛ وكيف أثر هذا على مستقبله

الكلامي؟

وأما المستوى الثاني:- في تقديري- فيتمثل في الخلاف المذهبي حول السيادة بمفهومها الأنثروبولوجي الشامل على منطقة المغرب العربي، ففي حين شهد المذهب الأشعري والمالكي قوة ونفوذا في الأوساط الشعبية بالمدن والأرياف، كان المذهب الإباضي يعيش انحسارا متواصلا وضعفا عن المقاومة، ناهيك عن الانتشار، وليست مهمة التأليف في المناظرات بأقل أهمية في هذا المضمار، فقد أدت دور ما يسمى في أيامنا "التنظير والتعبئة الإيديولوجيين"، مدعومة بالنفوذ السياسيى والديني. لقد مثلت المناظرات الكلامية رغم طابعها الفكري ووسائلها المعرفية وجها من وجوه الصراع الاجتماعي والسياسي.

ولهذا اهتم الإباضية بمسائل فقهية وكلامية ارتبطت بواقعهم الاجتماعي، واهتموا كثيرا بكافة القضايا التي تؤسس الدولة المستقلة في فكرها الكلامي والسياسي، وهنا يأتي السؤال عن أهم القضايا السياسية التي اشتغلت عليها المرجعيات الإباضية، وما الذي دفعهم إلى تأسيس دولة انفصالية عن الدولة المركزية؟ وكيف كانت نظرتهم إلى المختلف الذي انفصلوا عنه كالخوارج، أو قاوموه كالحكم المستبد الجائر؟

وكما تجيب الدراسة عن السبب وراء بقاء الإباضية وتواجدهم كفرقة واتجاه إلي يومنا هذا، في الوقت الذي انتشرت فيه كثير من الفرق الأخرى، ولم يبق منهم إلا مآثر داخل أروقة البحث العلمي الأكاديمي فقط!

وأما الصعوبات التي واجهت الباحث: فكانت تنحصر في صعوبة الحصول على المصادر والمراجع الإباضية اللازمة لهذه الدراسة، والتي لم تكن لتتوافر علي أرض الكنانة مصر، ما احتاج إلي اتخاذ تدابير أخرى للحصول عليها، ذكرت طرفا منها في نهاية هذه الدراسة (مستقبل الإباضية). بالإضافة إلى التنقيب في موسوعات كتب الفقه والسير – على ضخامتها- لاستخراج المعلومات الكافية في البحث.

منهج الدراسة:

احتاجت طبيعة هذه الدراسة إلي المنهج التاريخي الوصفي، وذلك من خلال سرد المسائل والقضايا الكلامية الإباضية وتطورها داخل (الواقع الزمني) من خلال عرض مرتكزات الفكرة والأسلوب والمنهج في المراحل المختلفة ثم تمحيصها، وأخيرا تأليفها ليتم عرض الحقائق عرضا صحيحا في مدلولاتها وفي تأليفها، وبغرض الوصول إلى استنتاج مجموعة من النتائج ذات البراهين العلمية الواضحة.

ولم يكن من بد من التعويل على المنهج التحليلي، والمنهج المقارن، والمنهج النقدي، سواء داخل المدرسة الإباضية بين فرقها المختلفة كالوهبية والنكارية، أو داخل الفرقة الواحدة كالوهبية التي تمثل عموم الإباضية حتى يومنا. وكذا خارجها مقارنة بالفرق الأخرى من الأشاعرة والمعتزلة والمرجئة والحشوية والمرجئة... وغيرها. ما يعني محاولة استيضاح – على نحو متسع – للوضع الكلامي الإباضي بين الفرق الإسلامية، وإبراز ما ارتأيته صوابا، ثم يأتي دور المنهج الاستنباطي لاستخراج القضايا العقدية من تلك

المؤلفات.

ومما ينبغي التنبيه إليه – في الإطار المنهجي– ما يأتي:

١– سعيت إلى أصالة المصادر، ولم أكتف بالنقل عن الناقل اتباعا لقواعد البحث العلمي القاضية بالحرص علي أصالة المرجع.

٢– في الشأن الإباضي: كان الميل إلي الاختصار، فتجنبت كثرة النقول والاستشهادات والاستطرادات – وبخاصة ما يتعلق بحدود الفكرة الواحدة– حرصا على أن يكون المكتوب والمعروض متنوعًا: إما تنوعًا في الأفكار أو تنوعًا مختلفًا في القضايا والعناوين، أو المناقشة والتحليل، وما عدى ذلك فقد اكتفيت بالإحالة إلى المصادر والمراجع لمن يرغب التوسع في البحث والمطالعة. وأما في الشأن المقارن للفرق الأخرى: فقد اكتفيت – قدر الاستطاعة – ببيان أوجه الاتفاق والاختلاف مع الإشارة إلي المصدر أو المرجع، وحتى لا تثقل الرسالة بما ليس من ماهيتها.

٣– ربما ورد في الرسالة – في بعض الأحايين – ذكر بعض الآراء لأئمة الإباضية في القرون اللاحقة – أي خارج حدود دراستنا– وذلك راجع لسببين؛ الأول: أن اللاحقين شرحوا وحشّوا واختصروا للسابقين، وخصوصا لعلماء القرن السادس الهجري، فآثرت أن يكون تفكيك بعض ما يشكل على الباحث من داخل الاتجاه الإباضي لا من خارجه وصولا إلي الحقيقة كما قصدوها وأرادوها. والثاني: ما اقتضاه البحث من منهج مقارن استهدف البيت الإباضي في المغرب وما توافقوا عليه واختلفوا فيه مع إخوانهم في المشرق.

٤– ولأن البحث قد استهدف بيان أراء أشهر متكلمي القرن السادس الهجري فقد قمت بتعريف متسع لهم في مبحث خاص داخل الدراسة، وأما من سواهم فقد اكتفيت بذكر تاريخ الميلاد والوفاة، أو ما تيسر، وذلك حرصا علي عدم إثقال الحواشي واتساع الرسالة.

خطة البحث:

اشتملت خطة البحث علي مقدمة، وتمهيد (مهاد وتأسيس)، وثلاثة أبواب، وخاتمة، وقائمة المصادر والمراجع، والفهرس. وسأذكر هنا الخطة إجمالًا؛ لأن فى فهرس الكتاب ما يغني عن التكرار والإطالة.

ففي المقدمة: ذكرت أسباب اختيار الموضوع ودوافعه وأهميته، والدراسات السابقة، وبيان إشكاليات البحث وأهدافه، وصعوباته، والمنهج الذي عولت عليه في هذه الدراسة.

وأما التمهيد: فقد تناولت فيه: التعريف بالإباضية من داخل المصادر الكلامية ورحلتهم في طريق إثبات الذات ومحاولاتهم التفرقة بين "النحن والأغيار"، ثم كان التعريف بعلم الكلام الإباضي ومراحل تطوره، مع ذكر أسباب وعلامات نضوجه وازدهاره في القرن السادس الهجري، والتعريف بأشهر علمائه.

الباب الأول: (الإلهيات)، وفيه أربعة فصول، تحدثت في الفصل الأول: عن المعرفة ومصادر الاستدلال

على العقائد عند متكلمي إباضية هذا القرن. وفي الفصل الثاني: وجود الله ووحدانيته، والقضايا المتعلقة بذلك. وفي الفصل الثالث: عن أسماء الله تعالى وصفاته، والتعريف بالصفات الذاتية والفعلية ومدلولاتهما، والفرق بينهما، وعلاقة الصفات بالذات الإلهية. وفيه أيضا: موقف الإباضية من المتشابه، ومسألة الرؤية وخلق القرآن. والفصل الرابع: عن القضاء والقدر، والذي اشتمل علي قضايا مهمة، مثل موقفهم من: خلق الأفعال، والكسب، والتحسين والتقبيح، والإرادة الإلهية وعلاقتها بالفعل الإنساني، والاستطاعة، والتكليف بما لا يطاق، والتوفيق والخذلان.

الباب الثاني: (النبوات)، وفيه ثلاثة فصول؛ الفصل الأول: عن الرسول والرسالة، والفصل الثاني: عن الإيمان والكفر. الإيمان من حيث تعريفه وحقيقته، وعلاقته بالإسلام، والتقليد والنظر، وهل هو يزيد وينقص؟ ثم تحدثت عن الكفر: تعريفه، وعلاقته بالشرك، والجهل، والنفاق، والبدعة، والمعصية، وموقفهم من الوعد والوعيد، والثواب والعقاب. والفصل الثالث: عن الإمامة والفكر السياسي الإباضي، وتحليل علمي لفكرة الثورة والخروج علي الحاكم الجائر.

الباب الثالث: (السمعيات): وقد جاء في فصلين، الأول: عن موقفهم من الجن والملائكة، والمسائل المتعلقة بهما. والثاني: عن الموت والبعث، وموقفهم من الشفاعة، والصراط والميزان، والجنة والنار.

وخصصت عنوانا في نهاية الدراسة لمستقبل الإباضية، ثم خاتمة: ذكرت فيها: النتائج والتوصيات.

وفي الأخير: أسأل الله أن يقبل هذا العمل بقبول حسن، كما أسأله التوفيق والسداد ... اللهم آمين

التعريف بالإباضية: من داخل المصادر الكلامية في القرن السادس الهجري.

يناقش هذا العنوان رحلة الإباضيين في طريق إثبات الذات، ومحاولاتهم التفرقة بين "النحن والأغيار" أو"الأنا والآخر"، وذلك من خلال المصادر الكلامية. وهى محاولات لم تكن سهلة، فقد خضعت لمؤثرات وعوامل مختلفة داخلية وخارجية، واتخذت أشكالا متباينة.

لقد مرت هذه الرحلة بمراحل مختلفة من خلال تناولهم لمسائل علم الكلام لأجل التمايز، فأحيانا كانوا يضطرون إلى قبول الوافد الذي يميزهم عن غيرهم، ومرات أخرى يجعلون من الصبغة السياسية واستغلال النص المقدس وادعاء الحقيقة المطلقة سببا في إقصاء الآخرين، ليستقر بهم المطاف إلى تقريب وجهات النظر في محاولات يلتئم معها أشلاء النزاع الحادث من وراء التراشق الفكري وآثاره الدموية، مصحوبا بصورة تجاوز مرحلة محاكاة المعرفة والتعلم والأخذ عن الغير إلى مرحلة الإبداع.

أولًا: إشكالية التسمية والنسبة:

من المتعارف عليه أن الإباضية واحدة من أقدم الفرق الإسلامية، والتي تعود نشأتها إلى النصف الأول من القرن الهجري الأول، وأنها قد أخذت اسمها من عبد الله بن إباض (ت:٨٦هـ- ٧٠٥م) أحد فقهائها الأوائل. لكن من الإشكاليات التي تواجه الباحث – من خلال مصادر الإباضية نفسها – الاضطراب في التسمية بحثا عن التمايز، من حيث نسبتهم إلى عبد الله بن إباض، والدوافع لهذه التسمية، وما هي أثرها في علم الكلام الإباضي؟

في البداية: تجمع المصادر الإباضية[1] أن جابر بن زيد الأزدي (ت:٩٣هـ/٧١١م) هو مؤسس المذهب الإباضي وأول إمام للإباضية بلا منازع. فمذهبهم من الناحية العلمية والتشريعية ينسب إلى الإمام جابر بن زيد، وهذه مسألة واضحة عند الإباضية ليس فيها غموض.

وتأتى المصادر الإباضية كذلك لتنسب إلى عبدالله بن إباض دورا ثانويا للمذهب بالمقارنة مع جابر بن زيد، وأن ما كان يصدر في كل أقواله وأفعاله عن جابر بن زيد[2]. ولكن في الوقت ذاته تذكر المصادر نفسها أنه كان إمام أهل التحقيق والرئيس من البصرة وغيرها من الأمصار[3]، كما تضيف أنه الشخص الذي ناظر الخوارج (المتطرفين) والقدرية والمعتزلة، والمرجئة، والشيعة[4]، فابتلي في مواقفه وآرائه فصبر وظفر. وهو الأمر الذي يصعب معه التوفيق بين كون ابن إباض إمام أهل التحقيق ... وبين كونه لا

---

(١) توافرت هذه المعلومة فى جميع مصادر الإباضية ومراجعهم سواء كانت كتب تاريخ – سير – طبقات – فقه – عقائد – انظر على سبيل المثال : الدرجيني : الطبقات، الشماخي السير، الحارثى العقود الفضية، على يحيى معمر الإباضية فى موكب التاريخ .

(٢) انظر: الشماخي : ١/ ٤٢ السير ،أطفيش، الرسالة الشافية ص٤٣ عن ابن وصاف.

(٣) انظر:الدرجيني : الطبقات١/ ٢٢، الشماخي : السير ١/ ١٥، البرادى : الجواهر ص ١٥٥.

(٤) انظر: الدرجيني، ١/ ٥١، الحارثى، العقود الفضية ص١٢٣.